

الفن من أجل الفن

كان من الواجب أن أقرأ هذا الكتاب (١) منذ زمن مديد، ولكنى وضعته جانباً ونسيته، ثم جاء يوم فإذا بي أجد، وكان يوماً ملائماً لقراءته؛ فقد كنت في حاجة إلى كتاب يجمع بين اللذة والتسلية، يستفيد منه العقل وترتاح إليه النفس. فوجدت ضالتي في هذا الكتاب؛ فهو يتكلم عن حركة من أهم الحركات الأدبية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وهو يقص قصتها في إسهاب وبيان بديع. هذه الحركة هي التي عرفت بالفن من أجل الفن، أي معالجة الأمور الفنية لمجرد الفكرة التي توحىها هذه الأمور.

وهي حركة نشأت في إنجلترا نتيجة لتأثر بعض الأدباء والفنانين بأدباء القارة، وكان فيها دليل على اتصال الثقافة الإنجليزية والأمريكية بثقافة القارة الأوروبية. فلقد تركت حروب نابليون حالة في أوروبا أشبه بما نشاهده الآن «قارة مرطضة ترتعد في أسمال ملابسها القديمة الزاهية بين بقايا معاهد مدنية تنظر بعين مظلمة إلى مستقبلها.»

سادت في مبدأ الأمر روح التشاؤم في أوروبا، ولا سيما فرنسا التي قاست وطأة هذه الحروب، ونتج من هذا اليأس روح مقابل هو روح التحدي، واندفع الأدباء والمفكرون نحو العبث بالقيم المعروفة في الأخلاق؛ ولذلك نجد حوالي سنة ١٨٣٥ قصة قصة «مدموازيل دي مويان» يكتبها شاب صغير هو تيوفيل جوتييه. وهكذا صار ما عرف بالحياة البوهيمية علماً على الأدب في ذلك العصر، وظهرت عدة كتب وعدة صور، وتأثر الشعراء ورجال الفن بهذا الروح.

وجاءت الإمبراطورية الثانية، فإذا فرنسا تعود سيدة على الثقافة في العالم،

(١) *The Aesthetic Adventure*, by William Gaunt (Jonathan Cape, London).

وتصير باريس عاصمة أوروبا في الأدب والفن يقصدها الزائرون من كل ناحية حيث يستطيع الأديب أو الفنان أن يحيا من أجل الفن وحده .

وكانت بريطانيا بالرغم مما اكتسبته من قوة وثروة ، لاتزال في عقليتها أشبه بالكاهن المنقطع في صومعته ، ترى المستقبل في الصناعة الميكانيكية . فلقد بلغت الصناعة فيها مبلغاً عظيماً ، حتى صارت وليس لها مثيل بين دول العالم في ذلك الاتجاه ؛ فلم تكن مثل فرنسا مشغولة بالهزيمة والتدهور بل كانت مشغولة بمشاكل النجاح ومتاعبه .

وكان من نتيجة ذلك أن نظرت بريطانيا إلى القارة نظرة الرجل المتعالى ؛ فقد أدت واقعتنا الطرف الأغر ووترلو إلى الاعتقاد بأن الإنجليزى بمقام ستة من أبناء أى بلد أوروبى آخر ، وأن الفرنسى رجل قزم مهذار تأخر فى سباق الحياة . وكان الإنجليز فى ذلك العهد لا يجترمون إلا الألمان ، ووجد بينهم كتاب مثل توماس كارليل يمجدون ما فى الجنس الألمانى من مزايا الشجاعة والدأب على العمل . لذلك كانت حركة الفن من أجل الفن ، وهى التى استقت معينها من فرنسا ، حركة غريبة غير مستحجة لدى الإنجليزى فى عهد فيكتوريا ، واعتبرت حركة خطيرة يجب محاربتها والقضاء عليها ؛ لأنها مستفاعة من بلاد الهزيمة والتدهور .

لنأخذ إذن فى ذكر دعاة هذه الحركة ، ولنبدأ بمصور أمريكى كان يعيش فى باريس فى سنة ١٨٥٦ ، هو جيمس أبوت ماكيل هويسلر ، جمع حوله نخبة من أبناء الجزيرة عشقوا الفن وعرفوا أن موطنه باريس وعاشوا عيشة بوهيمية مطلقة من كل قيد ، وما أكثر القيود فى ذلك الوقت ! واتصلوا بالأدباء والمصورين من الفرنسيين .

ظل هذا المصور رديحاً من الزمن يتثقف فى فرنسا ، ثم انتقل إلى إنجلترا ليعمل ويكسب أموالاً ؛ فالإنجليز أغنياء وأسرخياء ، وإن كانوا بعيدين عن الذوق الفنى . وقد جاء معه بصاحبين من الفرنسيين لأنهما يعيشان عليه ، وهو يعتمد على أقرباء له فى العاصمة الإنجليزية ، أهمهم فى نظره زوج أخته الذى كان طبيباً موسراً ، وفى الوقت نفسه محباً للتصوير .

وقد عرف الصاحبان فى داره كيف تكون لذة الحياة ، وعلى قول أحدها لذة احتساء زجاجة من الكونياك دون أن يدفع لها ثمناً . ولكن الطبيب على

حبه للفن الجميل كان رجلاً وقوراً لا يجب الفن المقترن بمسلك البوهيميين ؛ فلم تلبث علاقة المصور بزوج أخته أن تحولت إلى فتور ثم إلى عدااء مقيم . وكان من رجال هذه الحركة الشاعر الإنجليزي أـجرنون تشارلس سوينبرن وكان في ذلك الوقت فتى عجيب المنظر ذو شعر أحمر طويل وعينين خضراوين ووجه ممتقع ، وكان في مثل سن المصور هويسلر ، عاش في باريس وعرفه المصور ، وكان يجلب الفرنسيين حتى ادعى أنه من سلالتهم ، ويجب فيكتور هوجو ، ويجب شعر بودلير ، وكتب إلى هذا الأخير رسالة طويلة تدل على الحماسة والإجلال بعد أن قرأ ديوانه « زهور الشر » ، فرد عليه الشاعر الفرنسي بعد سكوت طويل برسالة ذكر فيها أنه لم يكن يتوقع قط أن يرى أديباً إنجليزياً يستطيع أن يخترق سر الجمال الفرنسي ، وأغراض الشعر الفرنسي . وقد اعتنق سوينبرن فكرة الفن للفن ، فكان يقول : « إذا استخلص القارئ من أية قصيدة دواء روحياً وإذا ابتلع القصيدة كأنها وصفة أخلاقية ، فإن الشاعر الذي يقدم هذه الأدوية العقلية لا يمكن أن يكون فناً . »

وكان الفضل لسوينبرن في أن عرف هويسلر الشاعر المصور دانتى جبريل روزيتي في داره بلندن . كان روزيتي في ذلك الوقت حزينا لوفاة زوجته ، وهو ضخم الجثة في الثلاثين من عمره ، يمضى أوقات عمله بين قرص الشعر والتصوير ولا سيما صور النساء الجميلات كما يتخيلهن ، ويمضى أوقات فراغه في جمع غرائب من الحيوان والمصنوعات والناس . وله جاذبية خاصة فتجده محاطاً دائماً بجمع من الأصدقاء والمعجبين والمتطفلين ، وظل هويسلر على علاقة حسنة به مدة عشر سنوات ، وكان يراه كل يوم تقريباً .

ومن هؤلاء الجماعة أو من ضحاياها شخص عجيب هو مصور يهودى اسمه سمون سامون ، كان مثالا لأولئك الشبان الذين تأثروا بشعر بودلير إلى درجة أن ابوا على أنفسهم السعادة التي قد يحصلون عليها في حياتهم ، وانحدروا في تيار الشفاء عن رغبة في تقليد الشاعر في شقائه . وكان سامون في بعض اتجاهاته شديداً بالشاعر بول فيرلين إلا أنه لم يكن شبيهاً به في عبقريته . وقد تعرف إلى سوينبرن فوجد فيه جمالا أشبه بالجمال الذي يتخيله الإغريقون مختلطاً برواء شرقى . ورأى في حديثه نزعة تجمع بين أسرار المسيحية وعقلية الوثنية ، كما وجد الشاعر في هذا المصور اليهودى الصغير ، مثالا من شباب الإغريق في

عصرهم الذهبي ، لا سيما إذ رآه مرة يقف أمام زميل مصور في ثوب إغريقي قديم ، فكأنه أبلون نفسه نزل إلى هذه الأرض ، ليطلع أهلها على سر الجمال . ولقد صار رفيقين لا يفترقان ، وكانا يقضيان أوقتهما في دار روزيتي . وورآهما صاحب الدار ذات مرة وقد خلعا ملابسهما وأخذا يجريان عاريين في حديقته ، كما كانا يتخيلا ن فعل آلهة الإغريق في غابات الأولمب .

هناك رجل آخر اتصل بسلعون المصور اليهودي الصغير ، ذلك هو والتر هوارشيو پاتر ؛ فقد اعجب بصورة رسمها هذا المصور لأبنة الحمر ، رسمها بعد أن صاحب أوسكار براوننج إلى إيطاليا . ورأى پاتر في هذه الصورة فنا عظيما ، وفي وجه ابنة الحمر جمالا مقرونا بالحبث مما يتناسب مع الموضوع كل التناسب . وقد نشأت بين الأديب والمصور صداقة متينة ، فصار هذا الشاب المصور في نظر ولتر پاتر ممثلا للفن من أجل الفن ، وهي عقيدته التي يدین بها .

وكان پاتر رجلا غريب الأطوار ، مات أبوه الطبيب وهو لا يزال طفلا ، وتركه لعناية أمه وجدته وخالته . وكان پاتر طفلا خجولا لا يحب الألعاب العنيفة ، فلم يكن معروفا بين زملائه في المدرسة ، وأخذ منذ صباه يأوى إلى العزلة فيجد لذة في زيارة الكنائس القديمة والتأمل في أبنيتها ، واشتدت نزعة الدينية وعكف على طقوس الدين ، حتى خشى بعض أقربائه أن يتحول إلى الكاثوليكية ، ولكنه عندما التحق بجامعة أكسفورد فقد كل إيمان بالدين ، وأخذ يسخر من أصدقائه الذين يقومون بواجباتهم الدينية . وكانت المذاهب الدينية في أكسفورد في ذلك الوقت تشغل أذهان الطلاب والأساتذة ، ولكن هذا الشاب الذي كان منذ قليل شديد التدين صار شديد الحملة على هذه النزعة ، ولم يعد أصدقاؤه يعرفون إلى أى مذهب ينتمى . ولعل الحقيقة أنه صار ممن يستقون عقيدتهم من هرقلوس وأفلاطون وبيتاغورس والألمانين هيجل وشلنج .

أقبل پاتر على قراءة الآداب الأوربية ، وأخذ في ترجمة بعض الكتب الخالدة من آثار أفلاطون وأرسطو ، وحرق سائر ما نظمه من شعره في طفولته الأولى لما فيه من عاطفة مسيحية ، وأخذ يدرس كتب فلوبيير وبودلير ، وصار رأيه في الفن متأثرا بالقدماء من الإغريق ، وبالمدحدين من الألمان والفرنسيين .

وازداد باثر رغبة في الابتعاد عن الناس وفي حب العزلة . وكان يحب الجمال المثالي ، فيكره مخالطة ذوى الصورة السخيفة القبيحة ، وكان لا يألف من الأصدقاء إلا من لهم مسحة من جمال ، ولكنه لم يكن متحمسا في صداقته ، كان يتعد عن الألفة والمخالطة ، ويكره كل الإحساسات العنيفة . وقد حاول في وقت ما أن يكون قساً بالرغم من ابتعاده عن الدين ، محاول صديقان أن يثنيه عن عزمه وأصر هو عنادا منه ، فكتبنا إلى الأسقف يخبرانه بعقيدته الحقيقية ، فعدل الأسقف عن رسامته .

ومع ذلك كان باثر على إلحاده يعيش عيشة الراهب ، عيشة بسيطة لا يتمتع فيها بلدائد الحياة إلا قليلا ، وكان كل ما يهتم له هو ذلك الجمال المثالي في كل شيء ؛ فكان في كتاباته يعمل على صقل العبارة حتى تصل الغاية ، ولا يهتم مطلقا أن يكتب شيئا يكون ذا مقصد أخلاقي أو أدبي ، بل كل غرضه ان يبلغ إلى تصوير الجمال لذاته ، كما نرى في دراساته عن الفن والشعر في عهد النهضة . وصارت الحياة في نظره إن هي إلا نظام لفن الجمال . وقد قيل إن طالبا سأله ذات يوم لماذا يجب علينا أن نعمل الخير يا مستر پاتر ؟ فأجاب : لأن الخير جميل .

ما مضت ثمانون سنة من القرن التاسع عشر حتى أخذت مجهودات هويسلر وسوينبرن وپاتر في تفسيرهم للفن من أجل الفن تؤثر بعض الشيء في الجمهور الإنجليزي ، وأخذت الصحافة الهزلية تسخر منهم وتتناولهم بالنكات اللاذعة ، وهم ماضون في آرائهم لا يهتمون إلا بالأصدقاء من الأدباء الناهضين الذين كانوا على اتصال بهم في فرنسا .

كان تأثيرهم عميقا ولكن في عدد قليل من رجال الفكر بين الإنجليز ، أما السواد الأعظم من الجمهور الإنجليزي فكانوا واقعين تحت تأثير نبي ذي صوت مسموع وشهرة كبيرة هو جون راسكن الذي ينادى بمبادئ تحالف مبادئ هؤلاء كل المخالفة ؛ فهو يلتقي محاضراته ويكتب كتاباته عن الفن في كل مكان من إنجلترا فتسمع له الجماهير . وكان في كلامه وفي قلمه حماسة نارية وبريق يخلب الأبواب ، ولكن السر الأساسي في شهرته هو نزعه الإنسانية . فالفن لديه ليس مجرد سحر غريب وسر من الأسرار ، بل هو مسألة معاصرة ومشكلة قائمة يجب علاجها ، وله غرض خلقي لا بد من تحقيقه . وقد اتخذ راسكن مركز النبي وظل غارقا في فضائل مصوري القرون الوسطى والمتقدمين من أساتذة

الفن الإيطالي ، حتى إنه لم يفتن لما قد طرأ من تغيير على الفن ، وكان يعتقد أنه لن يحدث تغيير بغير موافقته وبركته .

ففي ذات يوم من سنة ١٨٧٧ ذهب لزيارة معرض جروثير وهو الذي جمعه سير كوتس ليندسي ، وهناك شاهد صورة فظيعة في رأيه هي إحدى صور هويسلر التي سماها الليالي ، فلم يمانك أن أمسك بقلمه وكتب في المجلة التي كان ينشر فيها نقداً لاذعاً قال فيه : إن غرور الفنان الذي يدل على سوء تربيته يكاد يبلغ مبلغ الغش المقصود .

وهكذا رمى راسكن بقفازه ، ولكن خصمه لم يتردد في تناول هذا القفاز . لقد أخرج هويسلر في تلك الأيام خير صورته ، فقد وضع تلك المناظر الطبيعية لنهر التاميز في غسق الليل ، وهي التي أطلق عليها اسم الليالي على سبيل الذكرى لقطع شوپان الموسيقية المسماة بهذا الاسم ، وصور الصورتين الشهيرتين لوالدته ولتوماس كارليل ، ولكن هذه الشهرة لم تكن إلا لتزيد علاقته بمعاصريه من المصورين الإنجليز سوءاً ، وجاء نقد راسكن اللاذع فطفحت الكأس ، ولم ير إلا أن يرفع أمره إلى القضاء . على أن عواطف الجمهور كانت مع جون راسكن ذلك الذي ينادى بأن الفن للجميع وللعمال قبل أن يكون للسلادة ، وللشارع قبل أن يكون للقصر على حين كان هويسلر يقف موقفه الذي يرى فيه أن يكون الفن من أجل الفن الخالص دون أن يقصد به غرض نافع .

وبدأت القضية ، وكان على هويسلر أن يقدم الإثبات بشهود مختصين ، فمن يشهد له ؟ أهو هولمان هانت الذي يرى أن الصور التي عرضها إنما تدل على تكاسل في العمل بحيث يجب ألا تؤخذ جدياً ؟ أهو ميلر الذي ينظر إليه نظرة الأستاذ ويرى أنه لم يقع تحت يد الممتحنين ؟ أهو أدوارد پوينتر الذي كان يعارضه ولا يرى فيه خيراً ؟

لقد وجد هويسلر مشقة في الحصول على شهود ، فالرسام كين مصور جريدة « بنش » اعتذر إليه والمصور فريدريك لبيتون وافق ، ولكنه عاد فاعتذر في يوم القضية إذ كان عليه أن يشهد حفل الإنعام الملكي وتلقى وسام الفروسية في ذلك اليوم . ودانتى جبريل روزيتي مريض لا يقوى على الخروج . ولم يجد هويسلر في آخر الأمر غير مصورين قليلي الشهرة ، أحدهما البرت مور ، والآخر جورمان ويلز ، وكان له صديق مصور

ذو شهرة هو بيرن جونس ولكنه للأسف جاء في صف خصمه
 وابتداً نظر القضية. ولأمر ما غصت المحكمة بالناس وتجمهروا حتى في
 الطرقات ، وكان حادثاً فريداً في تاريخ القضاء. وأخذ القضاة يتناولون في وقار
 تلك القضية التي هي أعقد من قضية طلاق أو قتل. وكان محامي هويسلر
 يتكلم في لهجة عجيبه كأنه يعتذر عن موقفه للخصم. ثم دُعي هويسلر لأخذ
 أقواله ، وكان بادي الثقة بنفسه يتكلم بلهجة أمريكية ظاهرة ، ويبدى في كلامه
 حيوية وسخرية كبيرة. فبدأ بقوله : إنه ولد في بترسبرج ، ولم يكن الأمر
 كذلك ، ثم درس الفن في باريس ، وأن تلك الصورة التي نقدها راسكن قد عجز
 عن بيعها بسبب هذا النقد. ووقف نائب الأحكام ليسأله : ما معنى ليلية ؟
 فأجاب بأنها إحدى الصور التي تمثل مناظر الليل. وحينئذ أمر القاضي
 بإحضار الصورة فأدخلت ، ولكن الذين حملوها أتوا بها مقلوبة ، فضحك
 الجمهور. وسأله نائب الأحكام بعض أسئلة سخيفة ، ثم سأله عن الثمن الذي
 يبيع به صورته عادة ، فأجاب بأنه مائتان من الجنيهات. فسأله في كم من وقت
 ألقيتها ؟ يقصد كم استغرق بيعها. فأجاب ساخراً ألقيتها في يومين ، يقصد أنه
 انتهى من تصويرها في يومين. وحينئذ سأله : أطلب مائتي جنيه بمجهود
 يومين ! فقال : إنه تجربة عمر. وهكذا ظهرت المحكمة متحيزة لغير هويسلر
 وإن كان القاضي في تلخيصه القضية للمحلفين قد أبدى أن راسكن تجاوز حدود
 النقد المباح ، وصرح بما يمكن أن يعتبر قذفاً. واختفى المختلفون ساعة من
 الزمن ، ثم حكموا بأن هويسلر له عذره ، ولكنه شغل المحاكم بموضوع تافه ،
 ولذلك لا يستحق من التعويض إلا ملياً.

هكذا كانت هذه القضية الأولى فاتحة لقضايا أخرى من نوعها. والواقع
 أن هذه القضية قد أثرت في راسكن بقدر ما أثرت في هويسلر ؛ فقد ذهب من
 راسكن سلطانه وسيطرته على النقد الفني ، فترك منصبه أستاذاً للفن في جامعة
 أكسفورد ، وقصد إلى ضيعته في برنتوود حيث قضى السنوات الباقية من حياته
 في هدوء وسكينة.

ولقد انتصر عليه الأمريكي ، ولكن خسارته المالية كانت فادحة ، فنفقات
 القضية كانت ثقيلة الوطأة عليه ، وهكذا أخذ في وسط هذا الجمهور الإنجليزي
 الذي لا يعطف عليه يضع كتابه « الفن الجميل في تأليب الخصوم » .

ولكن هل تأليب الخصوم فن ، أم هو طبيعة في بعض الأشخاص لا يستطيعون معها إلا أن يوجدوا خصوماً ؟ لقد كان في هذه الفترة يعيش شاب آخر مستهتر عرف كيف يؤلب خصومة الجمهور الإنجليزي عليه ؛ ذلك هو الأديب والشاعر أوسكار وايلد الإيرلندي الأصل ، وهو ابن السير وليم وايلد الطبيب ، والليدي وايلد التي كانت تقرض الشعر .

درس هذا الشاب الإيرلندي في أكسفورد حيث أستمع لمحاضرات راسكن وعرف ولتر پاتر ، وقابل سميون سلمون فتأثر بأرائه عن الفن من أجل الفن وحده . وكان الشاب لا يعرف كثيراً عن الفن ، لذلك تأثر تأثراً قوياً بنظرية پاتر الذي يرى أن الفن سر من الأسرار ، وأنه الشيء الوحيد الذي له قيمة في الحياة . فأخذ الشاب يتلذذ أستاذه ، فيعمل على أن يحيط نفسه بالأسرار وعلى أن يبدو كثير التأمل شارد الفكر ، وكان يحرق البخور في غرفته لاجتباباً في الكنيسة ، بل تقليداً لپاتر الذي يرى في الدخان المتصاعد أثراً لدين قديم . ولم يكن وايلد ممن يقبلون على الألعاب الرياضية ؛ لذلك صار موضع سخرية من زملائه .

ومع ذلك كان وايلد ينظم الشعر ويكسب فيه الجوائز ، ومات والده فكان عليه أن يجد طريقاً لكسب قوته ، فقصده لندن ليتعرف إلى الكبراء . فكان من أوائل من عرفهم هويسلر في تلك السنة التي نُظرت فيها قضيته ، وكان يغشى مجالسه ، فتعرف إلى كثير من المشهورين الذين كانوا ينجذبون إليه لطلاقة لسانه وعدوبة حديثه وغرابة زيه وتأنقه مع رشاقة قوامه . وفي تلك الأيام كتب رواية هزلية بالشعر ، سُمّنت ومثّلت ، وفيها حاول أن يسخر من معاييب بعض كبراء عصره فاشتهرت هذه الرواية وأقبل عليها الجمهور . فدعى إلى زيارة أمريكا لإلقاء محاضرات في عدد كبير من مدنها ، وقد ذهب إليها في زيه العجيب المتألق . وسأله رجال الجمارك : أليه شيء يريد إعلانه ؟ فأجاب أعلن عبقرتي . فمذ تلك اللحظة كان يقابل بعاصفة من الهتاف والتقدير حتى من أقل الجماهير تحضراً وقبولاً لسماع حديثه . وكان في مواقف حرجة لا يعوزه الكلام ولا يخونه ذكاؤه . ، وقد أُعجب الناس برجولته في أكثر من موقف بالرغم مما كان يعرف به بين أقرانه في لندن من التخنت . وطاد من أمريكا مليء الجيب ذائع الشهرة .

لم يكن هذا ليروق صديقه الأمريكي الذي إتخذ لندن مقاما؛ فقد ظهرت على هويسلر بوادر الغيرة وأخذ ينتقد الآراء التي أذاعها وايلد في محاضراته. فكيف يجسر الشاب على النصيح بأن على الناس أن يغيروا من طريقة زينة دورهم. ففي رأى المصور أن ذلك أمر لا يههم مطلقا ولا يتفق مع القول بأن الفنان يجب أن يعمل للفن وحده وصار في مجالسه الخاصة يسخر من آراء الشاب وصار هويسلر في محاضراته يهزأ بنقاد الفن الذين لا يعرفون شيئا. وكان أوسكار وايلد يحضر هذه المحاضرات. ففي ذات مرة رفع الصوت معلنا أنه يختلف كل الاختلاف مع مستر هويسلر؛ فليس الفنان رجلا منفردا بنفسه، وقال إن إدجار ألن پو وبودلير هما من سادة الحياة لا بنيامين رست وپول رى لاروش. فلما أراد هويسلر أن يسخر منه لاختياره هذين الاسمين غير المعروفين للفن أجاب وايلد في هدوء إننى وجدتتهما في إحدى الموسوعات، وقد ذكر أنهما كانا يحاضران في الفن ولم يخلفا شيئا من صورهما، لذلك أنصحك أن تكون حذرا يا جيمس. وكانت هذه السخرية مما أدت بهويسلر إلى حب الانتقام، فكتب ذات مرة يسائل أى علاقة لأوسكار بالفن إلا أنه يتعشى على موائدنا ويلتقط من فتاتنا بعض الفواكه التي يبيعها في الريف.

وهكذا أخذ هويسلر يتعد عن أصدقائه ويحسد نفسه وحيدا. وكانت خصوماته تزداد بتدمه في السن وتتخذ أوضاعا تافهة. ولقد صدق ديجا المصور الفرنسي حين قال عنه إنه لمن المتعب حقاً أن يتخذ الإنسان دور الفراشة بدل أن يكون ثورا هربا مثل.

وهكذا أخذ المصور الأمريكي يشعر بالمرارة نحو جمهوره الإنجليزي. وكان هنالك شخص آخر أخذ يشاطره هذا الشعور هو جورج مور الأيرلندي الأصل الذي نشر في سنة ١٨٨٧ كتابه «اعترافات شاب». فقد جاء مور إلى لندن بعد أن عاش دهراً في باريس وتعرف إلى رجال الفن وارتاد مشارب القهوة، وتركت هذه السنوات فيه أثراً لا تحموه الأيام. فلما أن جاء إلى لندن شعر بفراغ عظيم، ولم يجد في رفقاته في مشارب الخمر ما يعوضه عن عشرة مانيه، وديجا، ورينووار، وقيليميه دى ليل آدم، وكاتول مندرس، على أنه لم يلبث في لندن أن تحول من التصوير إلى الأدب، حيث أخرج تلك الاعترافات التي تأثر فيها بكتابات ويسمانس الفرنسي وبكتابات ولتر پاتر الإنجليزي.

وفي هذه الأثناء كان أوسكار وايلد قد زار باريس لأول مرة وقد ملا جيبه بالدنانير الأمريكية ، فلقى جمعاً من الشعراء والأدباء أمثال جونكور ، ودوديه ، وملازميه ، وأعجب بفرنسوا برنارد . وقد استكشف في هذه الزيارة أن الآراء التي اعتنقها هويسلر وبشر بها لم تكن بالجديدة ، وقد أثرت فيه باريس بقدر ما أثرت في جورج مور ، فأخذت رواية فلوير عن هيرودياس توحى إليه فكرة سالوميه ، ورواية ويسمانس إلى العودة توحى إليه فكرة صورة دوريان جراي . وعاد إلى لندن بعد أن تغيرت طباعه ، فعدل عن تلك الملابس الفنية التي كان يرتديها ليدل بها على نفس نزعته إلى ملابس عادية يادية التأنق ذات ذوق باريسى ، وأخذ يعيش عيشة اللهو واللذة .

سئل وايلد ذات مرة عن مرمرى حياته فقال : إني لا أبحث عن السعادة ، بل أنا أبحث عن اللذة وهي أشد ألماً .

وكانت اللذة حينئذ مؤلمة حقاً . ولعل رجلاً آخر فرنسيّاً كان يعيش وقتئذ في لندن يبحث أيضاً مثل هذا البحث هو الشاعر پول فيرلين الذي بدأ سحره ينتشر على جانبي مضيق المانش ، والذي كان اسمه يذكر دائماً مقروناً بالشاعر الشاب رامبو .

أجل ! البحث عن اللذة هو الذي قاد أوسكار وايلد إلى تلك المأساة التي قضت على حياته وهو لما يتجاوز ربيع الشباب ، فإن اللذة إذا كانت حقاً للأديب فإنها لا بد أن تزيد من خصومات الناس حوله ، ولا بد أن تمتد منافسيه في عالم الأدب بما يستطيعون أن يتخذوه موضوعاً للحديث عنه واللفظ حوله . ولقد اجتمعت حول وايلد جماعة من الشبان المعجبين به حتى انتاب أصدقاءه الخوف عليه . فرجال مثل فرانك هاريس وكلايد فنش لم يكونوا أنبياء ولكنهم مع ذلك بدأوا يرتعدون للفظ الذي أثاره وايلد . وحاولوا أن يحذروه فلم يرتدع ، ولقد اتهم بعض الناشئين من الأدباء فرصة للهجوم على هذا الأديب الذي هو أكبر منهم سنّاً وأكثر شهرة . فعلى سبيل المثال وضع الكاتب روبرت هيتشر الذي عرف بعض أصدقاءه وايلد في مصر قصة اسمها « الباقة الخضراء » ، شهر فيها بوايلد وجماعته . وكان أشد خصومه مركيز كويتزبرى المعروف وقتئذ في حلقات الملاكمة .

فقد كان المركيز لا يقر الصداقة الأدبية التي نشأت بين وايلد وبين ابنه لورد

الفريد دو جلاس، وبدأ الأب يعمل في عنف على فصم هذه العلاقة. وفي ذات يوم زار وايلد في بيته وأخذ معه رجلاً ليكون شاهداً، وأخذ يكيّل لوايلد اللعنات والتهديد؛ فما كان من وايلد إلا أن دقّ الجرس فجاء خادمه فقال له أمام الزائر الغاضب: أترى هذا الرجل! إنه مركيز كويتزبرى أقبح وحش في لندن، فعليك أن لا تسمح بدخوله إلى هذه الدار مرة أخرى.

على أن كويتزبرى لم يكتف بذلك، بل ذهب في الليلة الأولى لتمثيل إحدى روايات وايلد ومعه مقدار من البقول والخضراوات ليقتذف بها المؤلف. وأخيراً أرسل إليه رسالة فيها قذف قبيح. فرأى وايلد أنه لا يحسن السكوت على ذلك، والتجأ كما التجأ هويسلر من قبل إلى القضاء لينصفه غير حاسب حساباً لتأثر القانون بالمجتمع.

استمر الفصل الأول من هذه القضية بل هذه المأساة ثلاثة أيام، وقد دافع عن المركيز محام اسمه كارسن كان يعرف وايلد من أيام أكسفورد، وكان الدفاع يرمي إلى إثبات أن كتابات وايلد ذات نزعة معيبة منافية للأداب، فأخذ يلقى على وايلد أسئلة عن بعض قصصه على أن المحامي لم يكن قوياً في هذا الباب، ولكن قوته ظهرت في اليوم الثاني من نظر القضية حين اتجه المحامي إلى الكشف عن حياة وايلد الشخصية. وكانت إجابات وايلد الذي يبحث عن البريق الأدبي مما يزيد التهمة التي يريد أن يثبتها المحامي في هذا الوسط القضائي الذي لا يفهم إلا أن الكلمات تعبر عما قصد بها لا أكثر ولا أقل.

سأله المحامي هل أظهر الحب لخادم في أكسفورد؟ فأجاب وايلد على سبيل الاستخفاف: كلا! فقد كان الخادم عادياً بل قبيح الصورة. فسأله المحامي: وما دخل قبح الصورة في الموضوع؟ فأجاب وايلد: لا أفصد شيئاً وإنما تأثرت لسؤالك العجيب.

ولقد ظهر في هذه الأيام الثلاثة أن وايلد خسر القضية، والقضاء الانجليزي حينئذ يفتح الباب واسعاً أمام المركيز لكي يقتص من التهمة التي اتهم بها. ولم يبطئ المركيز في تقديم أوراقه عن طريق محاميه إلى المحكمة، وصدر الأمر بالقبض على وايلد، وابتدأ الفصل الثاني من هذه المأساة، وكانت الصحافة في ذلك الوقت أشد شماتة وثلباً للناس منها الآن، وكان الناس أكثر رياء، فتعالت الصيحات من كل جانب بما عبرت عنه إحدى الصحف حين قالت في اليوم الذي

قبض فيه على أوسكار وايلد : إن خير مايفعله الناس هو أن ينسوا أوسكار وايلد بتصنعاته الدائمة ، وتعاليمه العجيبة ، ومنتجاته المسرحية . فإذا لم يحاكم فلندعه في عالم السكون ولا نسمع عنه فيما بعد .

وكان من المستطاع لو أراد وايلد أن يذهب إلى عالم السكون بأن يسافر في الباخرة إلى الجانب الآخر من المانش ويتفادى القبض عليه ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه كان ينتظر هذا الاعتقال في شيء من الراحة ، وكأنه كان يرى في نفسه شهيداً من شهداء المذهب الذي ينادى به .

وبدأت المحاكمة ، وقد أطلق سراح وايلد بضمان شخصي في فترتها ، ولكنه وجد أبواب الأصدقاء مغلقة دونه والفتادق لا تقبله ، وتقابله جماعة من المأجورين بالسخرية ، ولم يستطع أن يجد مأوى إلا في غرفة أخيه . وقد نصحه بعض الأصدقاء بالفرار إلى فرنسا حيث ينسأه الجمهور ويلقى على الحادث ستار ، فلم ينتصح وكانما القدر يجره إلى مقدر لا مرد منه .

واستغرقت هذه القضية شهرين ، وكان بعض الخلصاء ، ولا سيما فرانك هاريس الكاتب الأمريكي ، يلحون عليه في الفرار ، وقد أحضر له هاريس قارباً خاصاً وقف ينتظره في ميناء إريث ، ولكنه لم يفعل بل ظل يتردد على المحكمة حيث صدر الحكم عليه وخرج منها إلى السجن .

ولم يأل الجمهور الإنجليزي جهداً في إظهار سروره بهذا الحكم ، فكان العامة يصبحون ليسقط الأرسقراط يتخذونه مثالا لقبائح تلك الطبقة الممتازة مع أنه لم يكن منهم ؛ إذ لا يمتلك غير مايربجه من كتبه ، وقد حجزها الناشرون عن الجمهور بمجرد الحكم عليه ، كما سحبت مسرحياته من المسارح . وهكذا كان عقاب الذي أتى بمجديد لم يألفه الجمهور شاملا ، واضطر إلى أن يمتثل فضلا عن السجن حكم الإفلاس وبيع أثاث بيته ومجموعاته والتحف التي كان يجلبها بثمن زهيد وهكذا نزل ضيقاً على سجن ريدينج حيث كتب تلك القصيدة الشهيرة ، ووضع تلك الاعترافات .

آثر القرن التاسع عشر على الزوال وقد منيت فكرة الفن من أجل الفن بما يشبه الهزيمة بعد أن تعرض أقطابها لسخط الجمهور الذي حاولوا أن يخرجوه من كهفه الفكري . ومع ذلك ظل لهذه الفكرة تلاميذ لا يذهبون مذهب الأقطاب في مغالاتهم وإن كانوا يعملون لهذه الفكرة . وكان المصور

الشاب أوبسبرى بيردسلى لا يزال حياً ، ذلك الذى كان يرسم صورته فيتخذ لباس القرن الثامن عشر فى جميع الصور حتى ما كان منها قديماً ، وقد اقترن اسمه بما رسمه من صور لرواية « سلوميه » المشهورة لأوسكار وايلد ، ومع أن الشاب المصور لم يكن على وفاق كبير مع أستاذه ؛ فقد كان وايلد يعتقد أنه خلق بيردسلى إذ أتاح له تزيين كتابه بالصور فى حين كان بيردسلى يعتقد أنه خلق وايلد إذ صور كتابه . وكان وايلد كثيراً ما يتهم على بيردسلى ، وقال ذات مرة : « إن بيردسلى العزيز يعرف فرنسا حق المعرفة ؛ فقد سافر ذات مرة إلى ديب » . ولا شك فى أن المصور تألم من هذا القول ، فهو فى قرارة نفسه ، كان يعتقد أن معرفته للأدب الفرنسى لا تقل عن معرفة وايلد به . ولم يكن بيردسلى ممن يعطفون على وايلد فى ضعفه الجئسى ، وهو بالرغم مما فى صورته من ميول شاذة كان يكره أن تتخذ هذه الصور دليلاً على شذوذ فيه .

وكان من شبان هذه الحركة فى ذلك الوقت شاب من أهل ويلز اسمه آرثر سيموندىز ، تلقى فلسفة الجمال من پاتر ، وقضى أوقات طويلة فى فرنسا ، فصارت النظرة الفرنسية إلى الجمهور عادة له ، وكان يحترم فيرلين وملازميه ، وهو زعيم الجماعة التى ظلت تلح على فيرلين حتى رضى بالخروج من المستشفى ليلقى محاضرات فى أكسفورد ولندن حيث نزل الشاعر الفرنسى العبقري ضيفاً عليه ، وكان يشرب كيات كبيرة من شراب « الجن » ثم يصب على حلقة المعجبين حوله سيلاً من الذكريات .

وقبل نهاية القرن بستين فتحت أبواب سجن ريدينج ليخرج منها وايلد إلى عالم لا يجد فيه صديقاً . ولم يكن من السهل على وايلد أن يعود إلى مجال الحياة كما فعل فيرلين ؛ فلقد استطاع فيرلين ألا يهتم بالمجتمع الذى كان فيه وأن يؤلف لنفسه تلاميذ ومريدين بالرغم من كل شئ ، وصارت ردائله أساساً لوجهة فلسفية جعلت منه شخصية يمكن مقارنتها بسقراط . ولكن وايلد لم يكن يستطيع شيئاً من ذلك ، فهو رجل مجتمع لا يستطيع أن يعيش بدون وسائل الترف والنجاح ، وهذا مما زاد فى تعاسته . والواقع أن وايلد لم يكن واسع الأفق ، وفى كتاباته بريق لا يتفق مع وقار مركزه الذى وجد نفسه فيه . وقد سأله كاتب فرنسى من المهتمين به هو أندريه جيد : « لماذا لا تضع مسرحية جديدة ؟ » فأجاب فى حزن أنه عاجز عن ذلك .

